المقاطعة

جاء في الفصول لابن كثير ما يلي:

«ثم أسلم حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجماعة كثيرون، وفشا الإسلام. فلما رأت قريش ذلك ساءها، وأجمعوا على أن يتعاقدوا على بني هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف: ألاّ يبايعوهم، ولا يناكحوهم، ولا يكلموهم، ولا يجالسوهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في سقف الكعبة، ويقال إن الذي كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف، ويقال: بل النضر بن الحارث، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم (فشلّتْ يده)، وانحاز إلى الشِّعب بنو هاشم وبنو المطلب، مؤمنهم وكافرهم إلا أبا لهب ـ لعنه الله ـ فإنه ظاهر قريشاً. وبقوا على تلك الحال لا يدخل ـ عليهم أحد نحواً من ثلاث سنين.

وهناك عمل أبو طالب قصيدته المشهورة: جزى الله عنا عبد شمس ونوفلاً.

ثم سعى في نقض تلك الصحيفة أقوام من قريش، فكان القائم في أمر ذلك هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن حُبَيب بن جذيمة بن مالك بن حشل بن عامر بن لؤي، مشى في ذلك إلى مطعم بن عدي وجماعة من قريش، فأجابوه إلى ذلك، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه أن الله قد أرسل على تلك الصحيفة الأرضة فأكلت جميع ما فيها إلا ذكر الله عز وجل، فكان كذلك. ثم رجع بنو هاشم وبنو المطلب إلى

مكة، وحصل الصلح برغم من أبي جهل عمرو بن هشام»[١٥].

وأمر المقاطعة هذا يتطلب وقفة تأمل، ذلك لأن هذا السلاح لا زال إلى اليوم مسلّطاً من طرف الأقوياء على الضعفاء، والملاحظ في العصر الحديث أن تجارب الدولة الإسلامية قد تعرضت في أقطار عدة لمثل هذا التضييق، أو الحصار حسب التعبير السياسي الشائع، غير أن الذي يجب أن نركز عليه هو الطريقة التي يفشل بها مثل هذا النوع من الحروب وهي «المقاطعة».

إن أهم ما يضعف المقاطعة هو إحداث ثغرات فيها، تحولها في نظر فارضيها إلى مجرد حرب صورية لا معنى لها ولا أثر.. وهذا ما حدث فعلاً في شِعْب أبي طالب، فرغم أن المشركين منعوا عن النبي صلى الله عليه وسلم، ومن معه الميرة وشددوا في ذلك، إلا أن الواقع فرض شيئاً آخر غير الذي أراده الكفار، فكان المحاصرون في الشِعْب يخرجون في الأشهر الحرام لاشتراء حوائجهم، كما كانوا يشترون من العير التي ترِد مكة من خارجها، وكان بعض المتعاطفين معهم يحملون إليهم بعض ما يحتاجون إليه سراً، مثلما كان الأمر بالنسبة لحكيم بن حزام الذي كان يحمل قمحاً إلى عمته خديجة ـ رضي الله عنها ـ وقد تعرض مرة له أبو جهل فتعلق به ليمنعه، فتدخل بينهما أبو البختري، ومكّنه من إيصال القمح إلى عمته.

وقد تعرضت التجربة السودانية والأفغانية إلى مثل هذا التضييق، كما تعرضت له دول مثل كوريا الشمالية والعراق وإيران وليبيا.. غير أن الملاحظ في كل هذه الحالات وغيرها أنه بقدر ما يضعف أثر هذه المقاطعة بإحداث ثغرات فيها، بقدر ما تصبح غير مجدية وبالتالي يخف وينقص حماس فارضيها لها.

١٥ ـ الفصول ص ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤

إن الحصار الذي فرضته أمريكا وبعض الدول الغربية على إيران قد فَقَد مفعوله فيما سمي بخرق قانون داماتو إذ أقدمت بعض الشركات (الفرنسية) على خرق الحظر المفروض على طهران بإقامة علاقات استثمارية، وبعد ذلك وجدت بقية الشركات الغربية نفسها مضطرة لئلا تترك الساحة للشركات الفرنسية وحدها فدخلت اللعبة وانكسر الطوق.

وفي الحظر المفروض على ليبيا في إطار العقوبات فيما سمي بقضية لوكربي كان لقرار واغادوغو ببوركينا فاصو، والذي اتفقت فيه دول أفريقية عدة على خرق الحظر الجوي على طرابلس، الدور الكبير في إحداث الثغرة المطلوبة، والتي بعدها مباشرة اضطرت الولايات المتحدة الأمريكية إلى إنهاء ملف «لوكربي» وبسرعة، إذ رأت أنه لم يعد للحظر الذي تفرضه على ليبيا من معنى بعد هذه الثغرة.

إن هذا كله يصب في مصب هام وهو إدراك أن الأطراف التي يجب أن تزعزع وتهز جدار الحصار المضروب هي أطراف من خارج «الشِعْب» المحاصَر، بل قد تكون من ذات الصف الذي يمارس هذه المقاطعة. ولكون السياسة في كل زمان ومكان هي فن الممكن، وأنها تخضع للمنطق المفروض، فإن صف العدو لا يكون عادة في فرض مثل هذه المقاطعات والتضييقات بالقناعة ذاتها بين جميع أفراده، الذين قد يكون فيهم المغالي في الحماس، وكذلك المغالي في الإنكار، وبين هذين الطرفين وجهات نظر متراوحة بين شدة وضعف. والمطلوب الاستفادة من الجهات اللينة، أو المنكرة للمقاطعة والمتواجدة في صف العدو.

إن إسرائيل لا تقوم سياسياً واقتصادياً إلا على هذه الفكرة.... ففي الولايات المتحدة الأمريكية والغرب لوبيات صهيونية تقيم أقوى العلاقات مع أصحاب النفوذ السياسي والمالي من أعضاء كونغرس،

وحكام ولايات، وأعضاء برلمانات، وغير ذلك، للضغط في الاتجاه الذي يخدم إسرائيل، حتى وإن كان هناك من السياسيين والمسؤولين في تلك البلاد من يكره إسرائيل.

جاء في الرحيق المختوم: «مرت ثلاثة أعوام والأمر على ذلك، وفي المحرم سنة عشر من النبوة حدث نقض الصحيفة وفك الميثاق، وذلك أن قريشاً كانوا بين راضٍ بهذا الميثاق وكارهٍ له، فسعى في نقض الصحيفة من كان كارهاً لها، وكان القائم بذلك هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي وكان يصل بني هشام في الشعب مستخفياً بالليل بالطعام، فإنه ذهب إلى زهير بن أبي أمية المخزومي ـ وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب ـ وقال: يازهير، أرضيت أن تأكل الطعام وتشرب الشراب، وأخوالك بحيث تعلم؟ فقال: ويحك، فما أصنع وأنا رجل واحد؟ أما والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها، وقال: قد وجدت رجلا، قال: فمن هو؟ قال: أنا. قال له زهير:ابغنا رجلا ثالثا. فذهب إلى المطعم بن عدي فذكّره أرحام بني هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف، ولامه على موافقته لقريش على الظلم فقال المطعم: ويحك، ماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: وجدت ثانياً، قال من هو؟ قال: أنا. قال: ابغنا ثالثا. قال قد فعلت، قال من هو؟. قال: زهير بن أبي أمية، قال: ابغنا رابعا.

فذهب إلى أبي البختري بن هشام، فقال له نحوا مما قال للمطعم، فقال: وهل أحد يعين على هذا؟ قال نعم. من هو؟ قال زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا معك، قال: ابغنا خامساً.

فذهب الى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم، فقال له: وهل على الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم، ثم سمى له القوم، فاجتمعوا عند الحجون، وتعاقدوا على

القيام بنقض الصحيفة، وقال زهير: أنا أبدأكم فأكون أول من يتكلم. فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم وغدا زهير عليه حلة، فطاف بالبيت سبعا، ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكة أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى، لايباع ولا يبتاع منهم؟ والله لاأقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

قال أبو جهل - وكان في ناحية المسجد -: كذبت، والله لا تشق.

فقال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب. مارضينا كتابتها حيث كتبت.

قال أبو البختري: صدق زمعة، لانرضى ما كتب فيها ولا نقر به.

قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها.

وقال هشام بن عمروا نحوا من ذلك.

فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل، وتُشُوورَ فيه بغير هذا المكان.

وأبو طالب جالس في ناحية المسجد إنما جاءهم لأن الله كان قد أطلع رسوله على أمر الصحيفة، وأنه أرسل عليها الأرضة، فأكلت جميع ما فيها من جوى وقطيعة وظلم إلا ذكر الله عز وجل، فأخبر بذلك عمه فخرج إلى قريش فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال كذا وكذا، فإن كان كاذبا خلينا بينكم وبينه، وإن كان صادقا رجعتم عن قطيعتنا وظلمنا. قالوا: قد أنصفت.

وبعد أن دار الكلام بين القوم وبين أبي جهل، قام المطعم إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا «باسمك اللهم» وما كان فيها من اسم الله فإنها لم تأكله.

تم نقض الصحيفة وخرج رسول الله عليه وسلم ومن معه من الشعب»[١٦].

إن الملاحظ أن الذي سعى في نقض الصحيفة وإنهاء المقاطعة لم يكن من المقاطَعين المحاصَرين في الشِّعْب، بل كان من الكفار الذين دفعتهم دوافع الخؤولة والعمومة إلى فعل ذلك.

لقد رفعوا شعار القرابة والرحم ولم يرفعوا شعاراً إسلامياً، وليس مطلوباً في رافع مظلمة أن لا يفعل ذلك إلا إذا كان مسلماً.

في الغرب اليوم، سواء في الولايات المتحدة الأمريكية أو في غيرها شخصيات بل وهيئات عدة يمكن أن تتعامل مع المسلمين في قضاياهم المصيرية. كما أن في المجتمع الدولي، دولاً يمكن أن تكون مع المسلمين إن هم تعرضوا للبغي والظلم من طرف أي قوة كبرى، غير أن تفعيل مثل هذا الدور الخارجي في إطار نصرة القضايا الإسلامية يبقى أمراً غائباً في برامج المسلمين دولاً كانوا أو جماعات أو أفراداً، لأن الكثير منهم لا يزال يفهم الصراع على أنه أداء ذاتي ومهمة لا يمكن أن ينوب فيها عن الأمة غيرها وغير أبنائها، وهذا الفهم ناتج عن تصور تقليدي للمعركة وللتدافع، غير أن الواقع اليوم شيء آخر تماماً، فأموال الأمة يمكن أن تصنع لها جنوداً من غير أبنائها، بل إن هناك من العلاقات الجيدة التي يمكن أن تربطنا مع آخرين ما يمنع تفعيلها الكثير من البأس والأخطار.

وفي موضوع المقاطعة يمكن أن نلاحظ شيئاً هاماً آخر، وهو أن المحاصرين في الشعب لم يكونوا كلهم مسلمين، فحين علقت الصحيفة في جوف الكعبة انحاز بنو هاشم وبنو المطلب، مؤمنهم وكافرهم، إلا أبا لهب، وحبسوا في شعب أبي طالب، لقد كان ابتلاء المسلمين في

١٦ ـ الرحيق المختوم ص ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨

هذه المحنة من أجل عقيدتهم، بينما كان البلاء النازل على من كان معهم من المشركين من أجل مواقفهم مع المسلمين، هذه المواقف المبنية على النصرة للقرابة لا لاعتقاد الحق، وهذه صورة رائعة لوحدة مختلفة المنطلقات استوعبها رسول الله صلى الله عليه وسلم... وفي عصرنا الحديث يمكن للمسلم أن يجد معه في محنته متعاطفين بأسماء ومسميات عدة، إنسانية، وسياسية، وقومية، والمطلوب منه أن يستفيد من كل هذا التواجد حوله، وهذا الدعم له، حتى وإن لم يكن من المسلمين، والذين يخرجون عن هذا الفهم من المسلمين سيجدون أنفسهم في دائرة ضيقة محصورة لا امتداد لها في العالم سياسياً، ولا إنسانياً، ولا اجتماعياً، ولا غير ذلك، وهو وضع قد يصلح لمجموعة من المبتلين المنقطعين في كهف في جبل، لكنه لا يصلح لأمة أو جماعة لها مشروعها العظيم الذي يعدّ البشر، مؤمنهم وكافرهم، مجاله الحيوي.

إن الذي قد يكون جديداً هنا كطرح شرعي، رغم الأصل الديني له، هو أن نصرة الكافر للمسلم قد يكون لها مقابل عند الله تعالى، صحيح أن الله قد ينصر دينه بالرجل الفاجر، وبأقوام لا أخلاق لهم لكن النص الديني واضح، ففي الصحيح عن العباس بن عبد المطلب، قال للنبي صلى الله عليه وسلم: «ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»[١٧].

وقد يكون هذا المقابل الهداية في الدنيا، وقد يكون الوقاية من سوء دنيوي، وقد يكون تخفيف العذاب يوم القيامة.

١٧ ـ صحيح البخاري، باب قصة أبي طالب ٥٤٨/١